(١)

حسن العشرة وحفظها

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه الكريم: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ}، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا مُحَمَّدًا عَبدُه ورسوله، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيهِ، وعلَى آلِهِ وصحبِهِ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ، وبعد:

فإن حسن العشرة وحفظها من الأخلاق الفاضلة والقيم النبيلة التي دعا إليها ديننا الحنيف، وذلك دأب النبلاء الطيبين، الأوفياء الصادقين، حيث يقول الحق سبحانه: {وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ}، ويقول سبحانه: {وَلَا تَنْسَوُا الفَضْلَ بَيْنَكُمْ}، ويقول (جل وعلا): {هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ}، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (وَمَنْ آتَى إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَعْلَمُوا أَنْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ).

والمتأمل في سيرة نبينا (صلى الله عليه وسلم) يجده نعم القدوة في حسن العشرة مع أهله وأصحابه ومع الناس جميعًا، فهو الذي وصفه ربه سبحانه بقوله: {لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ}، وبقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}، وبقوله (جل وعلا): (النَّبِيُّ أَوْلَى بِالمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ)، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِن نَفْسِهِ؛ مَن تَرَكَ مَالًا فَلِأَهْلِهِ، وَمَن تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا، فَإِلَيَّ وَعَلَيَّ).

لذلك كان نبينا (صلى الله عليه وسلم) خيرَ الناس أبًا وزوجًا وجدًّا وصاحبًا (صلوات ربي وسلامه عليه)، فها هو (صلى الله عليه وسلم) يعين أهله ويساعدهم في حاجتهم، ويقضي بعض وقته الشريف معهم لإدخال السرور عليهم، تحقيقًا لقوله تعالى: {وَعَاشِرُوهُنَّ بِالمَعْرُوفِ}، وقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا)، وقوله (عليه الصلاة

والسلام): (اتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ)، وقوله (صلى الله عليه وسلم): (خَيرُكم خَيرُكم لأهلِه، وأنا خَيرُكم لأهلي).

وكان (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أبًا رحيمًا، وجدًّا ودودًا كريمًا، يقول أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) (مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَرْحَمَ بِالْعِيَالِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم)، وكان (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إذا دخلت عليه ابنته فاطمة (رضي الله عنها) قام لها وقبَّلها بين عينيها، وأجلسها عن يمينه، بل كان يخصها ببعض أسراره إكرامًا لها وثقة فيها.

وعندما كان (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يخطب على المنبر وجد حفيدَيه السيدَين الحسن والحسين (رضي الله عنهما) يتعثران في المشي، فنزل من على منبره الشريف، واستلمهما وقبَّلهما، وقال: (نَظَرْتُ إِلَى هَذَيْنِ الصَّبِيَّيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ، فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قَطَعْتُ حَدِيثِي وَرَفَعْتُهُمَا)، وكان (عليه الصلاة والسلام) يصلِّي وَهوَ حاملٌ حفيدته أُمَامَةَ بنتَ السيدة زينبَ (رضي الله عنها)، فإذا سجدَ وضعَها، وإذا قامَ حملَها، فما أرقَّ عشرتَه (صلى الله عليه وسلم) وأجملها!

* * *

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم)، وعلى آله وصحبه أجمعين.

لا شك أن حفظَ العشرة وصيانةَ الجميل دليلُ وفاء الإنسان، وكرم أصله ومعدنه، وحُسن تديُّنه، والأسوةُ في ذلك أيضًا المثل الأعلى للبشرية كلها نبيُّنا (صلى الله عليه وسلم) الذي كان وفيًّا لأهله ولأصحابه وكذلك مخالفيه، فتأتيه (صلى الله عليه وسلم) عَجُوزٌ، فيحسن إليها أعظم الإحسان، ويكرمها أشد الإكرام، وعندما تسأله السيدة عائشة (رضي الله عنها) عن ذلك، يقول (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّهَا كَانَتْ تَأْتِينَا زَمَنَ خَدِيجَةَ، وَإِنَّ حُسْنَ الْعَهْدِ مِنَ الْإِيمَانِ).

ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) في الأنصار الذين آووه وناصروا دعوته (صلى الله عليه وسلم): (...فَوَ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا، وَسَلَكَتِ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ، اللهُمَّ ارْحَمِ الْأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ)، ويقول في شأن صديقه ورفيق حياته أبي بكر (رضي الله عنه): (إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ ومَالِهِ أبو بَكْرٍ، ولو كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا مِن أُمَّتِي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، ولَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلَامِ ومَوَدَّتُهُ)، ولم يكن ذلك مع أهله وأصحابه (صلى الله عليه وسلم) فحسب، إنما كان مع الناس عامة، فعن السائب بن أبي السائب قال: "أتيتُ النبيَّ (صلى الله عليه وسلم) فجعلوا يُثنون عليَّ ويذكروني فقال رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم): أنا أعلمُكم به، قلتُ: صدقتَ بأبي أنتَ وأمِّي، كنتَ شريكي في الجاهليَّةِ فَكنتَ خيرَ شريكٍ لا تُداريني ولا تُماريني، فكان (صلى الله عليه وسلم) نِعمَ الشريك كان لا يداري ولا يماري.

وكما كان (صلى الله عليه وسلم) يحفظ العشرة مع أهله وأحبابه، كان كذلك مع مخالفيه، ففي يوم بدر يتذكر (صلى الله عليه وسلم) المُطْعِمَ بْنَ عَدِيٍّ، ذلك الرجل الذي دخل النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) مكةَ في جواره بعد عودته من رحلة الطائف، فيقول (صلى الله عليه وسلم): (لَوْ كَانَ المُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا، ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ – يقصد أسرى يوم بَدر – لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ).

فما أجمل أن نتصف بحسن العشرة وحفظها مع الأهل والزملاء والجيران والناس جميعًا، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (خَيْرُ الأَصْحَابِ عِنْدَ اللهِ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ، وَخَيْرُ الجِيرَانِ عِنْدَ اللهِ خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ)، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ).

اللهم احفظ مصرنا، وارفع رايتها في العالمين